نيران البخل

أهالي قريتنا يتسمون بسمات أصيلة، وصفات نبيلة، قلما تجدها في غيرهم من المجتمعات، فهم مجبولون بفطرتهم على الكرم والتعاون والترابط والتكافل، تراهم في مسراتهم على قلب رجل واحد يفرحون ويمرحون ويضحكون ويغنون في نشوة غامرة ، وفي أحزانهم يكونون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى، تراهم إذا مرض أحدهم عاده كل أهل القرية، وإذا مات خرج في جنازته شيوخ القرية وشبابها وأطفالها، وإذا ألمّ بقريتهم خطب، أو نزلت بهم نازلة يتسابقون في دفع الأذى عن قريتهم، بل عن أنفسهم بدافع من الإيثار .. ذلك الخلق النبيل الذي امتدحه الله تعالى في قرآنه الكريم، وتلك الصفة الفضلى التي تجعل أحدهم يستعذب الألم الشديد في سبيل راحة أخيه المسلم .

إن معاني الشهامة والمروءة والنجدة تتجسد في أرقى صورها وأسمى معانيها حينما يهبون هبة رجل واحد لإنقاذ ماشية من المواشي قد سقطت في بئر الساقية، بل تتجلى هذه المعاني فيهم حينما يسمعون صرخة تسري مدوية تشق فضاء القرية، وتهتك حجاب الهدوء الذي يتوج جبينها الأغر..فينطلقون في سرعة البرق نحو ذلك الصوت المستغيث فإذا بأعمدة الدخان تتصاعد من جنبات المكان فتخطف أبصارهم، وألسنة النيران تتراقص يمينًا وشمالًا في خيلاء تلتهم كل ما يلاقيها دونما شبع، وأسطح المنازل في الريف مليئة بالحطب الجاف، وقش الأرز، والبرسيم الجاف، وغيرها من المواد التي تساعد على استمرار الحريق، بل تفتح شهية النار وتثير فضولها في طلب المزيد، في هذه الأثناء لا يستطيع أحد أن يرد

هجمتها الشرسة، ولا أن يصد ألسنتها الجائعة المندلعة في كل اتجاه ، هنالك تلقى شباب القرية يلقون بأنفسهم وسط هذه النار التي تأزّ كأزيز المرجل لا يخشون لهيبها، ولا يرهبون الموت الكامن في أحشائها ، كل ما يشغلهم أن يطفئوا سعيرها ، وأن ينقذوا ما طوته تحت خبائها .

ولست بناسٍ ذلك اليوم المشهود الذي اندلعت فيه الحرائق تلتهم المنازل في شَره حتى أتت على عشرين بيتاً في القرية، كان هذا الحريق ثالث أيام عيد الفطر المبارك، يومها كنت جالسا مع بعض أصدقائي في المسجد نتدارس بعض آيات القرآن، وكانت من عادتنا أن نتبع صيام رمضان بصيام ست من شوال ، على أن تبدأ هذه الأيام الست ثاني أيام عيد الفطر.

وبينما نحن جالسون إذ سمعنا صراخاً، فأسرعنا إلى مصدر الصوت، فرأينا حريقًا يشب في أحد المنازل، كانت الحرارة في ذلك اليوم شديدة تكاد تصل إلى خمسين درجة مئوية، وكانت عقارب الساعة تقترب من الثانية بعد الظهر، أقبل شباب القرية من كل حدب وصوب فإذا برياح شديدة تهب كالعاصفة تقلب اتجاه النار إلى المنزل المجاور، والنساء يحملن الأواني والطسوت والجرار الممتلئة بالماء، ويصعدن بها إلى الأسطح، والرجال في حومة الحريق يصارعون النيران المتأججة، ويحاولون أن يحجموها في مكان واحد حتى يستطيعوا التعامل معها، لكن قوة الرياح عصفت بكل المحاولات، فقررت أنا وأصدقائي أن نتصل برجال الإطفاء أقبل رجال الإطفاء بسيارتهم العتيقة بعد أن كلّت عزائمنا وضعفت قوانا، لكنهم لم يجدوا مصدرا للماء فأخبرونا بأن معهم خراطيم المياه، وعلى أهل القرية أن يحملوا هذه الخراطيم إلى الترعة التي تبعد عن مكان الحريق مسافة نصف كيلو متر تقريبا، جرى بعض الشباب يحملون هذه الخراطيم

ليصلوا بها إلى الترعة والبعض الآخر مازال يحاول إخماد الحريق بما أوتوا من قوة.

كان الأمر عسيرًا.. لقد انتقلت ألسنة اللهب إلى بيت ثالث ورابع وخامس، وسيارة الإطفاء مازالت معطلة، هنالك ناديت على زملائي وأخبرتهم بأننا لا طاقة لنا اليوم بهذا الحريق الرهيب، ولا ملجأ لنا إلا إلى الله، وطلبت منهم أن نسجد لله وأن نتضرع إليه سبحانه عسى أن يفك كربنا، ويرفع عنا هذا البلاء، سجدنا جميعا ونحن نحمل خراطيم المياه ضارعين إلى ربنا طالبين منه العون والمدد .. ثم نهضنا نستبق حتى أوصلنا الخراطيم إلى مصدر المياه ، لكن السيارة مازالت معطلة لأنها في الغالب لا تعمل فشباب القرية في كل الحرائق يطفئونها قبل مجيء سيارة الإطفاء ، وهذا الحادث المروع هو أول اختبار حقيقي لرجال الإطفاء ولسيارتهم غير الجاهزة .

أحس رجال الإطفاء بخطورة الوضع فاتصلوا بسيارة المركز التي أتت على الفور كانت الحرائق قد انتشرت في المنازل ، واتسع الرتق على الراتق ؛ فقد كان الحمام يتنقل من منزل إلى منزل وهو يحمل النار في جناحيه مما ساعد على انتقال الحريق إلى أكثر من مكان وأصبح من الصعب احتواء هذه الحرائق المتوالية السريعة .

تشجع رجال القرية عندما وجدوا سيارة إطفاء مجهزة وقد بدأت عملها ، فعادت إليهم حماستهم، واستعرت جذوة نخوتهم، وهبوا في خفة ونشاط بعدما كادوا يستسلمون لهذا الدمار المحدق، والهلاك الذي بات مؤكدا، نصف ساعة من العمل الدءوب من رجال الإطفاء ومن رجال القرية وأطفالها ونسائها حتى أطفئت آخر شرارة من شرر هذا الحريق المدمر وتصافح الجميع، وعادت بعدها سيارة الإطفاء إلى مقرها، وعاد رجال القرية إلى بيوتهم مزهوين بالنصر والقدرة على اجتياز الأزمات ..

تساءلت بيني وبين نفسي عن سر انتقال النار من مكان إلى مكان بعيد دون أن تقترب من بعض البيوت المجاورة، الناس يقولون الحمام هو السبب، لكنني لم أقتنع بهذا التعليل، بعد بحث وتمحيص وجدت أن أهالي البيوت التي شبت بها النار لم يخرجوا زكاة الزروع في هذا العام، والذي لفت نظري إلى هذا الاستنتاج أنني وجدت محصول الذرة فوق أسطح المنازل التي شبت بها النار هو الأكثر تضررًا، فسألت بعضهم:

- هل أخرجت زكاة الذرة يوم حصاده ؟!

فأجاب:

- كلا..!!

فمررت على بقية البيوت المحيطة وسألتهم ذات السؤال فوجدت أن النار كانت تبعد عن البيت الذي أخرج صاحبه الزكاة، فاغتنمت الفرصة وأعددت خطبة عن الزكاة وألقيتها في المسجد الكبير للقرية.. تذكر المصلون الحادث المفجع، وأيقنوا أن هذا الحادث كان حربًا من الله على مانعي الزكاة، ومنذ ذلك الحين أصبح أهالي البيوت المحترقة هم أحرص الناس على إخراج الزكاة سواء كانت زكاة فطر أم زروع وثمار.

*****